رواية تورجنيف الآباء والبنون

بقلم الدكتورة حياة شرارة

ان نتاج تورجنيف هو امتداد للتراث الادبي الرائع الذي خلفه اسلافه من الكتاب الروس ، فقد اغنى الادب الروسي باضافات فنية جديدة واسهم بنفاذ بصيرته وقوة ابداعه الفني في اعطاء لون غنائي ومسحة شاعرية لقصصه ورواياته جعلتها اقرب الى الموسيقى منها الى النثر الادبي . ان اداء تورجنيف ونقله لهذا الجو الشاعري المشبع بالنغمات العذبة والالحان المسحورة ينم عن رهافة وحساسية كبيرتين يتمتع بهما . وقد عمقت هذه الحساسية التي يتميز بها من فهمه للحياة الروسية فهو يدنو منها لا ككاتب فنان فحسب بل كعالم خبير بمعضلاتها وبما ينمو في رحمها من افكار وتيارات وما ستتمخض عنه من احداث . وقد مكنه هذا الفهم العميق للحياة المحيطة به من رؤية البراعم الفكرية الجديدة الآخذة بالنمو والتبلور قبل ان تفصح عن ذاتها بشكل جلي واضح الملامح . وقد اشار النقاد الى هذه الصفة التي ينفرد بها تورجنيف فابانوا انه يهتم بالدرجة الاولى بتصوير التغيرات والتبدلات التي تطرا على المجتمع . فهو يولي عناية فائقة لتقصي التطورات الاجتماعية التي تتخذ مظاهر فكرية متباينة وتيارات مذهبية مختلفة ، ولذلك شبه تورجنيف بباروميتر الحياة الروسية ، فهو يسجل التطورات الجديدة عند بدء تكوينها وقبل ان ينتبه لها الآخرون . ويشير الناقد الروسي دوبر الوبوف الى ابداع تورجنيف في هذا المجال قائلا : « يمكننا القول بشجاعة انه اذا تطرق السيد تورجنيف الى قضية ما في قصصه واذا صور جانبا جديدا في العلاقات الاجتماعية ففي هذا ضمانة كافية لبروز هذا الجانب فعلا في وعي الفئة المثقفة وان هذا الجانب الجديد في الحياة سيكشف عن نفسه وسيبدو قريبا جليا وساطعا امام اعيننا » ! اما الكتاب الروس الاخرون فنجد لديهم اهتمامات اخرى في تصوير الواقع الاجتماعي ، فليرمنتوف يركز على تصوير المعاناة الداخلية والآلام الفكرية والنفسية التي تمزق بطله . ويعنى جوجول برسم لوحات فوتوغرافية للانسان التافه الضحل الذي ينطوي عالمه الروحي على خواء وفراغ كبيرين . وتجذب اهتمام تولستوي ودوستويفسكي الحياة الوجدانية للبطل وعالمه الداخلي ويسعيان لكشف دقائق النفس الانسانية بسبل متباينة . ويحظى تصوير الحياة الروسية البطرياركية الراكدة باهتمام الكاتب جانتشاروف . وهكذا نرى ان كل كاتب ينجذب بصورة رئيسية نحو مظهر معين من مظاهر حياة الانسان او المجتمع . وتساعدنا معرفة هذا المظهر على فهم الخطوط العريضة في كتابات اي اديب لكي تكون منطلقا لنا في دراسة انتاجه الادبي .

لما كان تورجنيف يعنى بتبيان التطورات الاجتماعية فان بطله عادة ينتمي الى الفئة المثقفة المتنورة في المجتمع التي تحمل في داخلها آلام المجتمع ومشاكله ومعضلاته وتبحث عن الحلول الفكرية التي يمكنها ان تخلص الحياة الروسية من الشوائب والمظاهر السلبية التي تكتنفها . وقد عبر تورجنيف في قصة « رودين » التي تحمل اسم بطلها عن ممثلي التيارات الفكرية في سنوات الثلاثينيات والاربعينيات . فقد امتازت تلك الفترة بظهور ابطال اطلق عليهم في الادب الروسي صفة « الناس الزائدين » وهم جماعة ثوريون متمردون بسبل متباينة على الوسط الاجتماعي الذي يحيطهم ولكنهم ظهروا في فترة لم ينضج فيها بعد الوضع تاريخيا للنشاط العملي ولتطبيق الآراء التي يدعون لها ، ولذلك لم يستطيعوا قيادة الناس وتوجيههم وظلوا قاصرين عن تلبية متطلبات المجتمع رغم تبرمهم بمحيطهم . وقد عبر بوشكين في روايته « يفجيني انيجين » وليرمنتوف في « بطل عصرنا » وتورجنيف في « رودين » عن نماذج مختلفة من الناس الزائدين .

شهدت نهاية فترة الخمسينيات وبداية الستينيات انبثاق تيارات مذهبية جديدة في روسيا وجدت صداها في الحياة الادبية التي كانت مرآة صادقة للمجتمع بكل ما يجيش به من تناقضات وصراعات فكرية وعقائدية . وقد رسم تورجنيف ببراعه لوحة واضحة حية المعالم في رواية « الاباء والبنون » لهذا الوضع الجديد ولبطل العصر في تلك الحقبة الزمنية .

شرع تورجنيف في كتابة رواية « الاباء والبنون » في عام ١٨٦٠ وانتهى منها سنة ١٨٦١ . وقد احدث صدورها ضجة ادبية كبيرة ولا سيما بالنسبة لبازاروف بطل الرواية الرئيسي . فمنهم من اعتبره لا يمثل الثوري الحقيقي ومنهم من رأى فيه معبرا عن آراء وتطلعات الجيل الديمقراطي الناشيء . ومهما كان الامر فقد غدت « الاباء والبنون » مظهرا هاما من مظاهر الحياة الادبية والروسية في الفترة التي صدرت فيها . فهي تعطي لوحة واسعة للصراع الاجتماعي الآخذ بالصعود والتبلور بين الليبراليين الارستقراطيين المتمثلين بالاباء والديمقراطيين المنتمين للطبقة الوسطى المتمثلة بالابناء . فالرواية لا تدور حول الصراع بين الآباء والبنين بالمعنى الضيق للكلمة وانما تمثل الخلاف الفكري والاجتماعي بين الجيل الآفل والجيل الطالع، ولذلك يتسع اطار الرواية حتى يكاد يشمل المجتمع الروسي ويعبر عن

---

١ ـ مجموعة مقالات تحت عنوان « تورجنيف في النقد الروسي ». موسكو ١٩٥٣ . ص ١٥٠ .

التناقضات التي ينطوي عليها .

تسجل الرواية ظهور الطبقة الوسطى كقوة جديدة لها وزنها وثقلها على مسرح الاحداث في سنوات الستين . وقد تناول تورجنيف في قصة « رودين » بطلا من الطبقة الوسطى ايضا وهو رودين نفسه . بيد ان هذا البطل تعوزه الصلابة الفكرية التي يتميز بها بازاروف . فالاخير يوجه نقدا شديدا للمفاهيم الفكرية والفلسفية والاجتماعية والاقتصادية التي يرتكز عليها الاباء والتي يؤمنون بها . ومن هنا تنبثق الاهمية التاريخية لهذا البطل الجديد الذي يعرضه تورجنيف في روايته .

يدعو اركادي نيقولايفيتش كيرسانوف صديقه يفجيني فاسيليفتش بازاروف لزيارة اهله والتعرف عليهم بعد انتهاء السنة الدراسية . ينتمي كيرسانوف الى عائلة ارستقراطية من العوامل النبيلة . ويتعرف بازاروف على والده نيقولاي كيرسانوف وعمه بافل بتروفيتش كيرسانوف . اما بازاروف فوالده يعمل طبيبا في القرية ويعيش حياة بسيطة . وبعد ان يقضيا ردحا من الزمن في اقطاعية كيرسانوف يدعو بازاروف زميله لزيارته . رهنا نتعرف على صورة اخرى للعائلة والحياة الروسية اكثر تواضعا واقل جاها من عائلة كيرسانوف . ويزور الصديقان المدينة ويتعرفان على امرأة جذابة ذكية تدعى اودينتسوفا فيحبها بازاروف وتحبه هي ايضا ولكنهما لا يتزوجان بل يفترقان عن بعضهما في النهاية . ثم يعود بازاروف الى القرية فيمرض ويموت نتيجة المرض . هذه هي باختصار احداث الرواية .

لقد اختار تورجنيف في رواية « الآباء والبنون » طريقة قريبة من طريقة جوجول في « الارواح الميتة » . ففي الارواح الميتة يقوم تشيتشكوف بزيارة عدة ملاك لتسجيل العبيد الميتين باسمه ، وبهذا الاسلوب نتعرف على نماذج شتى من الملاك الذين تجمعهم على اختلاف انماط حياتهم وتفكيرهم التفاهة والحياة الطفيلية والفقر الروحي . وتقع احداث « الارواح الميتة » بعيدا عن العاصمة في الضواحي والمحافظات . ويصور جوجول حياة الملاك البعيدين عن مركز الحضارة. يتحرك بازاروف ايضا بين مجموعة من الملاك اقل عددا مما هم عليه في « الارواح الميتة » ولكنهم اكثر ذكاء وقابلية على التفكير وفهم الاحداث الجارية . ومكان الرواية هو ايضا المحافظات لا العاصمة او المدن الرئيسية .

استفاد بازاروف من دراسة العلوم الطبيعية التي تلقاها في الجامعة واصبح يعتمد العلم والتجارب منهاجا له ونبراسا في حياته ومرشدا له في كل ما يفعل ويقول . ولذلك يتسم تفكيره بنظرة تحليلية متفحصة وبسود التأمل والتمعن تصرفاته وسلوكه ويضمر عنده الاندفاء والتهور . فهو يستطيع السيطرة على عواطفه واهوائه ومشاعره . غير ان هذا السلوك والتفكير الرزين الوقور لا يتأتيان له بسهولة . فسيادة العقل في افعاله وارائه ليست صفة طبيعية فيه وليست من الشمائل التي يتصف بها وانما هي نتيجة نظرية يؤمن بها ويعمل على تطبيقها . وتقف عقيدته حاجزا صلدا في وجه نزعاته واهوائه ، ولذلك يحدث صراع دائم بين نظريته الحياتية وعواطفه التي تبرز هنا وهناك الى الوجود رغم محاولته كبتها . فهو مثلا يحب والديه وبدلا من ان يظهر لهما مشاعره نجده يعاملهما بقسوة وسخرية . ويحاول الابتعاد عن اودينتسوفا على الرغم من ميوله الطبيعية نحو المرأة لان ذلك لا يتفق مع ما يعتقد به . وهو يحتقر الحالات الرومانتيكية التي يمر بها عندما يحب او يكون في احضان الطبيعة ولكنه يستسلم للحظات رومانتيكية مما يسبب له انزعاجا مريرا « ان احساسه برومانتيكيته يثير فيه شيئا من الاشمئزاز . توجه نحو الغابة وسار وسطها بخطوات سريعة مكسرا الاغصان الساقطة وشاتما نفسه . فقد امسك بنفسه متلبسا بمختلف الافكار المخجلة كما لو كان الشيطان يشاكسه . وبدا له ان تغيرا طرا على اودينتسوفا وظهر في تعابير وجهها شيء معين ربما يكون ... وهنا ضرب الارض بقدميه وصر على اسنانه ولوح بقبضته مهددا نفسه » . ان هذا الصراع النفسي والفكري الذي يهيمن على عالم بازاروف الداخلي يسبب له نوعا من التمزق الداخلي والالم والقلق تجعله يفتقر الى الانسجام في حياته .

ينطلق بازاروف في فهم الواقع من الرفض . فهو لا يعترف لا بقيمه ولا باثاره الحضارية ولا بمنجزاته . فهو يريد ان يبني الحياة الانسانية على مقومات جديدة ولذلك يرى ضرورة هدم كيانها واسسها في مختلف المجالات . ونسمعه في نقاشه يقول :

« ـ الرفض هو احسن شيء في الوقت الحاضر ، ونحن نرفض ..

ـ كل شيء ؟

ـ كل شيء ؟

ـ ماذا ؟ لا الفن والشعر فقط ... ولكن و ... من الغطاعة لفظ ذلك ...

ـ كل شيء ؟ اعاد قولها بازاروف بهدوء تام . »

يرفض بازاروف كل المجتمع وكل الحياة القائمة لذلك يبدو متطرفا في آرائه . فهو يرفض الحب والموسيقى والفن والطبيعة . فالطبيعة مثلا عنده عبارة عن « ورشة » والانسان « عامل » فيها ، هذا هو الجانب الذي يعترف بوجوده وهذه هي العلاقة الوحيدة التي يمكن ان تكون بين الانسان والطبيعة . ومما يزيد من غرابة آرائه هذه وتطرفها ان الاشخاص الذين يتناقش معهم من النبلاء المثقفين الذين يعتبرون الموسيقى والفن والطبيعة جزءا وثيق الارتباط بحياة الانسان ويتذوقون ويفهمون معانيها وجمالها وتبدو الحياة بدونها باهتة اللون جوفاء .

ان الرفض برأي بازاروف لا يقوم على اسس معينة وانما يقوم على نوع من التحسس غير واضح المعالم والابعاد . ويبين البطل رأيه في هذا الصدد قائلا : « انمسك بمبدأ الرفض القائم على التحسس . فانا اهوى الرفض لان تفكيري قائم عليه . لماذا تعجبني الكيمياء ولماذا تحب انت التفاحة ؟ نتيجة التحسس . ان هذا جلي ولكن الناس لا يتعمقون فيما وراءه » .

كان بازاروف يؤمن بالافكار العدمية ، والعدميون جماعة ثوريون يعتقدون بضرورة هدم الدولة واطلاق حرية الفرد الكاملة . وعلى الرغم من ان افكارهم طوبائية لا يمكن تطبيقها فانهم يمثلون فترة انتقالية نحو افكار تقدمية جديدة تقوم على دراسة كشافة للواقع الاجتماعي ومن هنا تتأتى اهميتهم . يؤكد تورجنيف على هذا الجانب الثوري في بطله ولما كانت الافكار التي يحملها بازاروف غير ممكنة التطبيق لانها كما قلنا غير عملية من جهة ولم ينضج الوقت تاريخيا لامكانية تحقيقها في الحياة الاجتماعية من جهة اخرى فان ظلا ماساويا يخيم على حياة بازاروف على الرغم من كثير من الصفات والخصال الايجابية التي يتحلى بها . يقول تورجنيف في احدى رسائله حول شخصية بطل « الآباء والبنون » « اردت ان اخلق من بازاروف شخصية تراجيدية لذلك لم اهتم بمسالة الرقة فيه . فهو انسان شريف وحقيقي وديمقراطي حتى الاظافر . وهو دائما يدحض حجج بافل بتروفيتش لا بالعكس واذا كنا نسميه عدميا فنعني بذلك ثوريا » .

يمثل بازاروف الشباب الثوريين الذين اخذت افكارهم الجديدة تعلن عن نفسها في تلك الفترة . وهو لا يمثل الاتجاه الثوري الذي كان يقوده الناقدان تشرنشفسكي ودوبرالوبوف وانما التيار الذي يمثله الناقد بيساروف والذي يدعو الى المادية القائمة على العلوم الطبيعية والتطبيقية . يعلق باسبيلوف على هذا الجانب من شخصية بازاروف قائلا : « انه لا يؤمن بشيء عدا التجربة العملية والاختبار العلمي ، ولذلك نراه هادئا باردا واعيا لحد الوقاحة . ويبدو احيانا لنا صفراويا قاتما لغياب المطامح الملهمة السامية عنه . لقد كشف تورجنيف في شخصية بازاروف تلك التيارات العامة التي وجدها في ممثلي الشباب الديمقراطي في سنوات الستين » . (٢)

---

٢ ـ غ. ن. باسبيلوف . تاريخ الادب الروسي في القرن التاسع عشر . موسكو . ١٩٦٢ . ج٢ . ص ٤٣٥ .

على الرغم من عدم اتفاق تورجنيف مع ممثلي الثوريين والديمقراطيين وعلى الرغم من ازوراره عنهم وتخاصمه معهم فقد حاول ان يخلق من شخصية بازاروف نموذجا حقيقيا لافكارهم وصفاتهم وسلوكهم دون ان تتدخل ميوله واهواؤه في ذلك . وقد سار تورجنيف ابعد من ذلك لدرجة انه اراد من القارىء ان لا يتخذ موقفا حياديا من بطل الرواية . فهو يقول في احدى رسائله عنه « اذا لم يحب القارىء بازاروف بخشونته وقسوته وجفائه وحدته ، اكرر مرة اخرى اذا لم يحبه القارىء فمعنى ذلك انني مذنب تجاهه ولم احقق غرضي». وقد يكون هناك سبب لاعجاب تورجنيف ببطله فهو يجد فيه متمما لشخصيته وخصاله . فقد كان تورجنيف لين العريكة دمثا لطيفا وليبيرالي التفكير وكان بازاروف نقيضه في ذلك فهو صلب الراي خشن الطباع متزمت ومعتد بنفسه .

تطغى شخصية بازاروف على بقية شخصيات الرواية ، بحيث يظهر الآخرون شاحبين وباهتين امامها . وقد يكون غرض الكاتب من ذلك التركيز على البطل الجديد الذي اخذ ينمو في المجتمع الروسي وتبيان اهتمام الآخرين بارائه وعقائده . ولذلك لا نجد في الرواية انداداً له من ناحية قوة المنطق والحجة واسلوب طرح الافكار . فمعارضوه ينطلقون من مواقع فكرية لا يمكن ان تصمد لمناقشاته . وتبدو مواقفهم العقائدية مزعزعة غير وطيدة او ثابتة ولذلك لا يكتشفون نقاط الضعف في آراء بازاروف .

يجري النقاش بين بافل بتروفيتش وبازاروف ويرتدي طابعا حاد النبرة ولا سيما من باقل بتروفيتش الذي يشعر ان نقاشه ضعيف وانه يعقد القابلية على مواجهة بازاروف ، ولذلك يثير كلام الاخير حفيظته ويأخذه الغضب . يقول الناقد افسيانيكا كوليكوفسكي : « ان بافل بتروفيتش لا يملك القدرة على ادراك عالم بازاروف ويحكم عليه من مناقشاته معه فهو « لا يستطيع فهم طبيعة بازاروف وفكره واخلاقه ويحكم بصورة سطحية على الشخص ولا يتعمق ما وراء آرائه وكلامه والظواهر العرضية فيه فاذا لم يعجب بهذا الكلام او تلك الظواهر ابتعد عنه واصدر حكما مستعجلا عليه » (٣) . ومع ان بافل بتروفيتش لا يملك لغة مشتركة مع بازاروف فهو يحاول ان يتبين مصدر القوة في نقاشه معه فهو يقول : « اشعر انه ينفرد بمزية خاصة لا نمتلكها نحن وقد تكون هذه المزية ناشئة عن ان آثار الملكية عنده اقل مما هي عندنا » . فبافل بتروفيتش يشخص مبعث زخم الافكار التي يحاججه بها بازاروف ويجدها في تحرره من ملكية الارض اي في عدم ارتباط مصلحته الذاتية بنظام الملكية القائم ولهذا يهاجم الآخرين ويسخر منهم احيانا ويعلو عليهم في مثله ومعتقداته . فالرواية كما اشار تورجنيف موجهة ضد النبلاء كطبقة تقدمية وبداية ظهور فئة اجتماعية جديدة مكانها اصلب منها واقوى على وضع حلول جذرية لمشاكل المجتمع .

يقدم تورجنيف نموذجا آخر من الملاك في شخصية نيقولاي كيرسانوف . وهو انسان وديع طيب القلب دمث الاخلاق ليبرالي التفكير متفتح الذهن . ويستطيع نيقولاي كيرسانوف بفضل هذه المرونة والتسامح في الراي ان يتفهم بازاروف اكثر من بافل بتروفيتش وان يتقبل آراءه بهدوء وبنوع من التامل دون ان يثور ويغضب كما يفعل بافل بتروفيتش على الرغم من بعد بازاروف الفكري عنه . والحقيقة ان نيقولاي كيرسانوف يمثل الملاك التقدميين للحقبة المنصرفة اى للفترة التي سبقت ظهور ابطال من امثال بازاروف . فقد اهتم بتطوير مزارعه وادخال طرق زراعية حديثة . ان الاطار الذي يدور فيه تفكير نيقولاي كيرسانوف قريب من نفس تورجنيف ومن آرائه واخلاقه ولكنه طبعا لا يمثله تمام التمثيل بل تنطوي شخصيته على بعض الطباع السمحة والاراء الاصلاحية المحببة لتورجنيف .

اما اركادي نيقولا يفتش كيرسانوف وصديق بازاروف فهو اقرب الى ابيه سواء في صفاته وخصاله او في تفكيره . فهو طيب ومؤدب وخجول ومتسامح الطبع . ان انجذابه نحو بازاروف في اثناء دراستهما سوية لا يعني ان نظرتهما في الحياة تصدر من معين واحد وان تفكيرهما يرفد من منبع مشترك فهما مختلفان في الميول والعواطف والافكار . فاركادي تنقصه صلابة الراي والتطرف والتمسك العنيد بمواقفه الفكرية كما هو الحال بالنسبة لبازاروف ولذلك يبدو اركادي باهتا شاحبا من هذه الزاوية امام بازاروف . وقد يكون مبعث صداقته لبازاروف انه وجد فيه مكملا لشخصيته او قد تكون جماهيرية بازاروف هي سبب تقربه منه واندفاعه نحوه . ولما كان الاساس الفكري مفقودا في علاقة اركادي وبازاروف فقد افترقا في نهاية الرواية .

تختلف « الاباء والبنون » في بعض الجوانب عن قصص تورجنيف السابقة . فقد كان تورجنيف يمتحن صمود افكار البطل التي يؤمن بها بموقفه العملي من البطلات اللواتي يقمن بدور القاء الضوء على محتوى حياة البطل الروحي والفكري والكشف عن كثير من الخصال والسمات التي تنطوي عليها شخصيته .

ففي قصة رودين تظهر ميوعة البطل وهروبه من الحياة الواقعية وعدم امكانيته في دعم القول بالفعل بواسطة الفتاة ناتاليا التي يقع في حبها . ان رودين انسان ذكي لبق قوي المنطق في عرض ارائه وتفنيد حجج المقابلين له وهو يدعو الناس للتطلع نحو مستقبل مشرق والعمل من اجله . وتعجب ناتاليا بافكاره المتحررة وتبادل رودين الحب وتكون مستعدة للتضحية من اجله بحياتها الارستقراطية والعيش معه رغم معارضة امها . وعندما توضح لرودين عزمها على ترك كل شيء في سبيل سعادتهما ينصحها رودين بالتروي والتريث ويرفض بشكل غير مباشر اقتراحها ويهرب منها . وهكذا يبدو جليا امام ناتاليا والقارىء ان رودين يستطيع فقط دفع الاخرين وتحريضهم على تغيير حياتهم غير انه ليس مستعدا للقيام بعمل شيء يتعارض والاعراف الاجتماعية التي يدعو للتمرد عليها .

يختلف الحال بالنسبة الى « الآباء والبنون » فادينتسوفا التي يحبها بازاروف لا تكشف الا جانبا معينا من حياته . فشخصيته اعمق واغنى من ان تستطيع علاقته باديتسوفا توضيحها وتقصي ابعادها . فهي تلقي انوارا كشافة على الصراع الداخلي الذي يعاني منه بازاروف كانسان ذي عواطف ومشاعر تفصح عن وجودها ويرفض بازاروف الاعتراف بها. ان قطع العلاقة التي تربطهما تصدر عن ادينتسوفا لا عن بازاروف كما حدث في « رودين » . ويمكن قول الشيء نفسه عن قصة « العش الاميري » فان علاقة الحب التي تربط لافرتسكي بطل القصة بليزا تكون المحور الرئيسي الذي يجري بواسطته تبيان شخصيته والكشف عن المعاناة الداخلية التي تمزقه وتدور شخصيات القصة كلها في فلك هذه العلاقة . اما قصة « في العشية » فان يلينا تلعب دورا هاما في تبيان الاهداف التحررية التي يكرس انساروف حياته لها ويعمل بصمت لتحقيقها من اجل تحرير بلاده بلغاريا من النير التركي .

حياة شرارة

جامعة بغداد ـ كلية الاداب

---

٣ ـ افسيانيكا كوليكوفسكي ـ المؤلفات الكاملة . موسكو ـ بتروغراد . ١٩٢٣ . جـ٢ . ص ٣٩ .